Arabic Language & Literature
Vol. 17, No. 2, Summer 2021
Manuscript Type: Research Article

https:// journals.ut.ac.ir/
Print ISSN: 1735-9767
Online ISSN: 2423-6187
DOI: 10.22059/jal-lq.2021.308397.1070

Another image in the Iraqi novel (I'jaam novel as an example)

Khodadad Bahri[1*], Sadek Alboghbeish[2]

1. Assistant Professor, Department of Arabic, Persian Gulf University, Bushehr, Iran
2. Ph.D. Candidate, Department of Arabic, Persian Gulf University, Bushehr, Iran

(Received: August, 23, 2020; Accepted: February, 17, 2021)

Abstract

The subject of the Other and its image in the works and writings of the human sciences are of great importance, for it is by the self-knowledge that we can understand the Other.There is no doubt that the ba'athist Other is one of the most important issues addressed by the Arabic novel since the Persian Gulf War until the US-Iraq War. The novels which expressed issues related to the Ba'athist regime, sought to portray another Ba'athist image and how the ba'athist Other dealt with the Iraqi people in order to yoke them under various ethnocentric slogans and rituals. Iranians, Kuwaitis and Kurds suffered alike from this prejudice, repression, and war. Iraqi novelist Sinan Antoon is trying to show the reader the true face of the Ba'athist regime through his novels. The leading character is a young student named "Euphrates" who is harmed by the Ba'athist regime's misbehavior and is forced to make a false confession. This research has studied the novel "Ajam" using imagology and descriptive-analytical method. The results show the ba'athist Other, using threats, repression and execution, has tried to spread his dominance in Iraq and other areas, and is the main owner of the war in the region, and even further, it has tortured and forced children to confess by putting their families under pressure in order to achieve his sinister goals.

Keywords

illustration, another Ba'athist, Sinan Antoon, novel I'jaam.

* **Corresponding Author, Email:** Bahri@pgu.ac.ir

مجلة اللغة العربية وآدابها
السنة ١٧ ، العدد ٢ ، صيف ٢٠٢١م
صفحة ٢٢٥ – ٢٤٦ (مقالة محكمة)

Print ISSN: 1735-9767
Online ISSN: 2423-6187
https://jal-lq.ut.ac.ir/

صورة الآخر البعثي في الرواية العراقية (رواية إعجام؛ أنموذجا)

خداداد بحري[١]*، صادق البوغبيش[٢]

١ . *أستاذ مساعد ، قسم اللغة العربية وآدابها في جامعة خليج فارس ، بوشهر- إيران*

٢ . *طالب دكتوراه ، في اللغة العربية وآدابها ، جامعة خليج فارس ، بوشهر- إيران*

(تأريخ الاستلام: ٢٠٢٠/٠٨/٢٣. تأريخ القبول: ٢٠٢١/٠٢/١٧)

الملخّص

لموضوع الصورولوجيا ودراسة الآخر أهمية بارزة في الكتابات الفكرية ، والنقدية ، وفي شتّى العلوم الإنسانية ، باعتبار أنّ معرفة الأنا لا تأتي إلا من خلال الآخر. لا شك مسألة الآخر البعثي من أهمّ القضايا التي تناولتها الرّواية العربية منذ حرب الخليج الفارسي حتّى غزو أمريكا للعراق عام 2003م. الروايات التي عالجت قضايا مرتبطة بالبعث ، حاولت أن تبيّن صورة الآخر البعثي العراقي ومعاملته مع الشعب العراقي ومحاولته لإخضاع الشعب تحت مسميات القومية وبإقامة مراسيم متنوعة تختصّ بالحزب والسلطة. من خلال نصوص هذه الروايات تجلّت للمتلقّي همجية البعث وما عانته الأنا العراقية وباقي الأنوات ،منها الإيرانية والكويتية ، والكوردية ، والمسيحيّة ، والصابئة ، والشيعية ، من قهرٍ وقمعٍ واضطهاد ،كما أظهرت بشاعة الآخر البعثي ، وقتله ، وذبحه ، وتهديده ، وإعداماته للمتلقّي. سنان أنطون روائي عراقي كشف عن الآخر البعثي في نصوصه بكثافة ، وحاول أن يبين للمتلقّي الصورة الحقيقية لأعضاء حزب البعث وتفكّراتهم. رواية "إعجام" هي الرواية التي ركّز الروائي على الآخر البعثي والأفعال البشعة التي قام بها لمحاولة إخضاع طالب جامعي مسيحي للإعتراف المزيّف. لقد درس هذا البحث صورة الآخر البعثي عن طريق استقراء رواية "إعجام" معتمداً على مبادئ الصورولوجيا ووفق المنهج التوصيفي- التحليلي ، وتؤكّد النتائج أنّ الآخر البعثي هو صاحب التهديد ، والحروب ، والقمع ، والإعدامات ، وقد كان الحزب يسعى أن ينشر سيطرته على نطاق أوسع من خلال السلطة على العوائل وإخضاع الأطفال لتدابير الحزب.

المفردات الرئيسة

الصورولوجيا ، الآخر البعثي ، سنان أنطون ، رواية "إعجام".

---

* الكاتب المسؤول: Email: Bahri@ pgu.ac.ir

المقدّمة

يُعَدُّ موضوع الأنا والآخر واحدًا من أثرى الكتابات الفكرية والنقدية في شتّى العلوم الإنسانية ، باعتبار أنّ الكشف عن الأنا ومعرفته لا يتأتى إلا من خلال الآخر الحاضر؛ وكان الآخر البعثي _بحسب النصوص_ في الحُقبة الأخيرة في العراق هو الآخر الأكثر ضرراً بكل ما يخصّ الإنسان والطبيعة؛ وقد بيّن "سنان أنطون" هذه الحُقبة في رواياته لكي يُظهر للمتلقّي المُعاناة و الآلام والظروف القاسية التي عاشها الشعب العراقي في ظل حكومة حزب دكتاتوري قمعي سفاك غاشِم.

إذن قضية الصورولوجيا تنبعث من تلاقي الشعوب والتحاماتها بشتّى الأشكال ، منها الحرب ، ومنها التجارة كما نقرأ: «يُلاحظ أنّ أكثر دراسات الصورولوجيا تتركز على النصوص التي تتحدّث عن تلاقي الشعوب والثقافات بشكلٍ سلمي مثل الرحلات أو غير سلمي مثل الحروب والاحتلال» (شكري وآخرون ، ٢٠١٧م: ٨٦). فقد استطاع الآخر البعثي فرض سلطته على الشعب العراقي بسيطرته على الإعلام وإظهار قدسية الحزب من خلال مراسيم ومسيرات احتفالية وقد جلب الأمن لنفسه من خلال استجواب الطلاب والناشطين وخوض حروب شتّى.

ويعمل الروائي العراقي المؤرق بهموم الاحتقان والاحتراب الطائفي ، الشاهر على صور الموت العبثي وآلاته الجهنمية على تأسيس نصوصه على مستويين متمايزين من السرد: أحدهما واقعي حقيقي ، وثانيهما فني تخييلي يُحيل صور الموت والاقتتال والتمزّق واللانتماء إلى سرد فانتزي كابوسي. (الشوابكة ، ٢٠١٨م: ٨٥)

إذن كان وقوفنا عند رواية "إعجام" لسنان أنطون لأننا أدركنا أنّ هذه الرواية تستجيب بشكلٍ واضح لدراسة الآخر البعثي حيث هذه الرواية تتجّه نحو رسم صورة الآخر البعثي وكل ما يتعلّق به. ومن خلال هذا البحث سنحاول الإجابة عن الأسئلة التالية: كيف تجلّت ملامح الآخر البعثي في رواية إعجام؟ وهل قراءة الآخر البعثي في روايات الأدب العراقي الحديث لها فوائد يكتسبها القارئ الإيراني والعربي؟ وما هي هذه الفوائد؟

خلفية البحث

من خلال البحث في مجال الصُورولوجيا تبين لنا أنّ هناك دراساتٍ آكاديمية باللّغتين الفارسيّة والعربية على مستوى كتاب ، أو أطروحة جامعية ، أو مقال محكم. على سبيل المثال لا الحصر:

كتب إياد عمّاوي في عام (٢٠٠٧م) ، كتاباً بعنوان «الأنا والآخر ودورها في رسم وتحديد العلاقة بين الوطن العربي والغرب» قُسّم على أربعة فصول: دراسة الصّورة عند الآخر الغربيّ ، وصورة الآخر الغربيّ عند العرب ، والعلاقة بينهما وصورة الفلسطينيين عند الغرب والأمريكيين.

نشرت ماجدة حمّود في عام (٢٠١٠م) ، كتاباً بعنوان «إشكالية الأنا والآخر: نماذج روائية عربية»؛ وقد اختارت المؤلّفة في هذا الكتاب ثمانيَ روايات من عدّة بلدان عربية وناقشت رؤية الأنا العربية ولغتها وموضعها تجاه الآخر وكيفيّة إيجاد علاقة التفاهم والتعامل مع الآخر في دراسة متأنية للروايات. من ميزات الكتاب أنّه يحتوي على مقدّمة نظرية حول إشكالية الأنا والآخر ، وتمتاز دراسة الرّوايات بتجاوز المستويات الاجتماعية والثقافية والسياسية ، والاهتمام بجماليات اللّغة والمكوّنات السردية كالعنوان ، والفضاء ، والاسم ، والضمير ، والحوار.

كتب محمد قاسم لعيبي (٢٠١١م) ، أطروحته بعنوان (صورة الآخر في الرواية العراقية المعاصرة) ، والتي نوقشت في كلية الآداب\ الجامعة المستنصرية. الأطروحة تشتمل على الفصول التالية: الفصل الأوّل: الذات الكلية العربية التي تتبنّى القضايا العربية في مواجهة الآخر ، والفصل الثاني: اهتمّ بالذات الفردية ، الذات القوية الصلبة ، والذات المتأرجحة ، والذات المغتربة والاغترابية ، والفصل الثالث: صورة الآخر وقد توزّع على ثلاثة مباحث ، كان الهدف الأوّل منها دراسة صورة الآخر الخارجي (الأجنبي) ، وكان هدف المبحث الثاني دراسة صورة الآخر الداخليّ (المحليّ) ، واهتمّ المبحث الثالث برصد اتجاهات رؤية الآخر.

هناك دراسة بقلم مسعود شكري وآخرين (٢٠١٧م) ، بعنوان «صورة الآخر الإسرائيلي في رواية "المتشائل" لإميل حبيبي» ، وقد قام الكاتب بدراسة الصورولوجيا حول الصورة الجسدية للآخر الإسرائيلي ، والآخر في مرآة المكان ، والآخر الإسرائيلي والديمقراطية ، والآخر الإسرائيلي والنظرة الدونية إلى الأنا الفلسطينية.

كتبت سمية سليمان الشوابكة (٢٠١٩م) ، مقالاً بعنوان «الموت ثيمة فجائعية في الرواية العراقية الجديدة وحدها شجرة الرمان لسنان أنطون أنموذجاً» ، ونُشِر هذا البحث في مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية ، وتستجلي هذه الدراسة أشكال تمثيلات الموت في "رواية وحدها شجرة الرمان" ، وكيفيات حضوره مادياً ومعنوياً في المتن الروائي نفسه ، ودلالاته في البناء الروائي كلّه بوصفه ثيمة فجائعية ألقت بظلالها على هذا المُنجز في أبعاده المتعدّدة.

كما كُتِبَت دراسات حول الأنا والآخر في الأدب الحديث ، إلا أنه -حسب علمنا- لم يتطرّق أحد إلى روايات سنان أنطون .ولهذا جاءت دراستنا لتُسلّط الضوء على الآخر البعثي في رواية "اعجام".

منهج البحث

يعتمد هذا البحث المنهج الوصفي-التحليلي ، ويهتمّ بدراسة الآخر البعثي في رواية "إعجام" في ظلّ التحدّيات المعاصرة من منظور صورولوجي. وقد انطلقنا في الأغلب ، من لغة الكاتب ونصوصه بدلاً من إعادة صياغة هذه اللّغة والأفكار بلغة ثانية قد لاتتطابق مع الأصل.

تلخيص رواية "إعجام"

تبتدئ الرواية مباشرة بتقرير من مديرية أمن بغداد حيث تنشعب هذه المديرية من وزارة الداخلية العراقية التي كانت مهمّتها الحفاظ على الأمن الداخلي العراقي وضبط ومراقبة الحدود مع الدول المجاورة ومكافحة الإرهاب وتجارة المخدرات والسلاح. كان بطلُ رواية إعجام شاباً مسيحياً يُدعى "فرات". وكان فرات طالباً في فرع اللغة الإنجليزية في جامعة بغداد ، وقد تنقّل ذهن البطل من أحداث السجن وهي التي رأى فيها إذلاله من قبل السجّان وبين ذاكرته التي طبعها حزب البعث في جميع مراحل حياته بدءاً من المرحلة الابتدائية.

الصورولوجيا في الأدب

توسّعت العلاقات الإنسانية في العصر الحديث وتعرّفت الشعوب المختلفة على بعضها وذلك لأسبابٍ مختلفة منها الرّحلات السياحية والتجارية والحروب . وهذه الرّحلات أثّرت على نفوس الوافدين حيث انعكست أحوال الشعوب وبيئتهم في نصوص الأُدباء والرحّالة. يعدّ الصورولوجيا أحد فروع الأدب المقارن ، فهو يشبهه في الآليات التي يستعملها للدراسة ، فالصورولوجيا «تحتاج مثله الى أدوات الناقد من معرفة بالعلوم الإنسانية والمناهج النقدية الحديثة ، كما تحتاج الى مؤهلات ذاتية ، كالذوق والحساسية وغير ذلك من أدوات تساعد

علي تلمّس الجمال» (حمود ، ۲۰۱۰م: ۹). والسِّمة الرئيسة للصورولوجيا هي التطرّق إلى «اختلاف الأنا عن الآخر أو اختلاف هنا عن هناك» (نانكت ،۱۳۹۰ش:۱۰۶). إنّ هناك علاقةً وطيدةً بين دراسات الصورولوجيا ومفهوم الصورة ولأجل هذا يجدر التعرّف إلى الصورة الأدبية ومغزاها لتبيين وظيفة الصورولوجيا. «يمكننا أن نعدّ الصورة جزءاً من التاريخ بالمعني الواقعي والسياسيّ ، أي جزءاً من الخيال الاجتماعي والفضاء الثقافي أو الإيديولوجي الذي تقع ضمنه ، فنتعرّف على الهوية القومية ، كما نتعرّف من خلال نظرتها ، على الآخر الذي يقف في مواجهة الأنا ودور العوامل السياسية والإقتصادية والدينية لهذه المواجهة والعداء» (حمود ، ۲۰۱۰م: ۱۰). وأمّا ذات الأديب تبحث عن وعي المجتمع عبر التزامها بقضاياه والتزامها الصّريح بالواقع وقضايا الشّعب والأنا تواجه الآخر عبر النّصوص الأدبية حيث يتشكّل الآخر على شقّين ، شقّ داخلي عربي وشقّ خارجي أجنبي بصفة المستعمِر ، لهذا فالنّصوص الأدبية منذ الأوّل «واجهت الديكتاتورية القمعية والفاشية والدموية وواجهت الذين أفسدوا في البلاد» (القوصي ،۲۰۱۱م: ۱۷-۱۸). والآخر البعثي في رواية إعجام هو من النوع الآخر الداخلي الذي واجه الشعب بالقمع والإضطهاد. وصف الآخر الداخلي أو البعثي «يمكن عدّها أهم خصيصة تمتاز بها الرواية العراقية في هذا الجانب ، التي تستمد وجودها من بنية المجتمع العراقي القائمة على التعدّد والتنوّع» (لعيبي ، ۲۰۱۱م: ۳).

الآخر

الإنسان اجتماعي بطبعه فهو يتفاعل ويتواصل ويتعامل مع الآخر ليستمرّ؛ فتعريف الآخر من وجهة ابن منظور هو «اسم على أفعل والأنثى أخرى ، إلا أنّ فيه معنى الصفّة لأنّ أفعل من كذا لا يكون إلا في الصفة...والجمع بالواو والنون ، وأخريات وأخر ، وحكي بعضهم: أبعد الله الآخر ، ويقال لا مرحبا بالآخر أي بالأبعد» (ابن منظور ،۱۹۸۸م: ۲۰۹).

وفي المعنى القريب البسيط هو «كلُّ من يقارب الأنا وأنت ونحن؛ أمّا في المعني الاصطلاحي الأبعد فالأمر مختلف» (أفاية ، ۱۹۹۱م: ۱۱). وما ذلك إلّا «لأنّ في الوجود الإنساني آخر دينياً ومذهبياً وقومياً وعرقياً وجغرافياً واجتماعياً وثقافياً وسياسياً؛ فتتعدّد دوائر الآخر ومستوياتها بتعدُّد دوائر الأنا ومستوياتها. ويختلف تحديد الآخر تبعاً لموقع الناظر إليه؛ فالآخر بالنسبة للذات الدينية هو ذلك الإنسان الذي ينتمي إلى دين آخر ، أما الآخر بالنسبة إلى الذات القومية أو العرقية فهو الذي ينتمي إلى قومية أو عرقية أخرى» (الهروط ، ۲۰۰۸م: ۱۳).

الآخر البعثي في رواية "إعجام"

تعدّدت مظاهر الآخر في الرّواية العراقية في القرن الأخير ، فالآخر ليس بالضرورة البعيد جغرافياً أو صاحب العداء التاريخي أو التنافس الدائم ، إذ يمكن للذّات أن تنقسم على نفسها ، أو يحارب بعضُها البعضَ الآخر ، فالأنا العربية تشظّت وانقسمت أنواعاً متصارعةً فيما بينها ، لهذا نرى الآخر الأجنبي والآخر الداخلي يلعبان دوراً بارزاً في الرّواية العربية الحديثة وتحديداً في العراق.

جاء الآخر في رواية "إعجام"على أساس مفهوم جمعي ومرتبط بالجمع حيث نعلم بأنّ «مفهوم الآخر ليس مفهوماً فردياً فقط ، وإنّه مفهوم جمعي أيضاً ، فكما أنّ الفرد يشكّل تصوّراته عن الآخر بناءً على تصوّره لذاته ، فإنّ المجتمع كذلك يكوّن له تصوّراً عن الآخر بناءً على تصوّره لذاته ، أي أنّ هناك تلازماً أيضاً بين صورة الذّات وصورة الآخر على المستوى الجمعي كما هو على المستوى الفردي» (الخبّاز ، ٢٠٠٩م:٢٣). يمكن تقسيم الآخر في الرّواية تبعاً للجنس ، والإيديولوجيا ، والجغرافيا ، كما قام بتقسيمها بسيوني (بسيوني ، ٢٠٠١م: ٣):

الآخر النوعي: الذي يقوم على أساس النوع المتباين رجل/ امرأة ، ذكر/ أنثى.

الآخر الديني: وتكون التفرقة علي أساس الدين ، مسلم/ مسيحي ، سنّي/ شيعي.

الآخر السُلطوي: ويراد به الانقسام بين الحاكم والمحكوم.

الآخر العنصري: إذ تقوم التفرقة هنا على أساس اللّون ، الأبيض/ والأسود.

لذا سنقوم بالكشف عن الآخر البعثي في نصّ الرّواية وسيلاحظ القارئ أنّ الآخر البعثي لأجل السُلطة والنظام السُلطوي قد مزج أمور الدين وطرد جميع المذاهب إلا المذهب الذي اتّخذه قائد الحزب لتغطيّة أفعاله ، ومن حيث الجغرافيا فقد فضّلوا المناطق التي كانت مسقط رأس كبار الحزب على باقي المناطق؛ وسندرس الدين والنظام السُلطوي للآخر البعثي وفق شخوص الرواية.

سلطة البعث

في عام ١٩٦٨م سيطر حزب البعث على العراق. حينما تولّى زمامَ الحكم "أحمد حسن البكر" وتولّى "صدام التكريتي" الأمانة العامّة لحزب البعث العراقي. قد تربّعت هذه السلطة على العرض بعد أن أزاحت جميع معارضيها ونكلت بكثير منهم ، وقد وظّفت ريع الموارد

النفطية لخدمة أهدافها التوسعية وتجهيز الجيش وتعزيز قدراته الحربية. (كاگلين ، ۱۳۸۳ش: ۲۳۷-۲۳۸).

همجية البعث تأتي من قدراته ونقلاً عن صدقي وآخرون نقرأ «كان للقدرة العسكرية الفائقة التي تزوّد بها صدام حسين أثر بارز وجليّ دفعه إلى زجّ العراق في حربين عداونيّتين ضدّ الدول المجاورة سُمّيتا بحربي الخليج الفارسي الأولى والثانية. وقد أدّى تعطّش صدام لكسب القدرة إلى إحلال العراق في دار بوار زادت من مأساة شعبه وأرجعت تطوّره إلى الوراء لعدّة عقود من الزمن. (صدقي وآخرون ، ۲۰۱۵م: ۴۴)

مراسيم البعث

يسرد لنا الروائي أحداثاً وكأنّها مرّت على الكاتب ، وهذا «سرد السيرة الذاتية تقنية مستحدثة في الرواية العربية ونمط جديد فيها ، من حيث أن السرد الذاتي يجمع بين جنسين نثريين هما الرواية والسيرة الذاتية في عمل واحد لتسمى رواية السيرة الذاتية أو السيرة الذاتية الروائية» (حاج علي ، ۲۰۱۷م: ۲۰۷). لهذا نرى سنان أنطون يسرد لنا أحداث فرات وكأنّها سيرة ذاتية من المدرسة والجامعة حتّى السجن. وقدتكاثرت المراسيم المؤيدة للحزب؛ وكان الأطفال أوّل الضحايا في مثل هذه الحفلات؛ لهذا قد ضيق الخناق على الطلاب وأجبروهم على الحضور في طوابير المسيرة لتأييد أفكار الحزب ، وكان شهر نيسان مولد البعث وقد تتكاثّر به الاحتفالات والمراسيم والمسيرات:

«سعفات النخل تصفّق برفق فوق رأسي احتفالاً بقدوم نيسان. "شهر العطاء... مولد البعث والقاعد" كما أصرّت إحدى اللافتات المعلّقة على جدار الكلية» (أنطون ، ۲۰۱۳م: ۱۱).

حاول فرات يصف لنا أحداث الاحتفالات في المدارس والجامعات والتي تكاثرت في شهر نيسان وهو الشهر الذي تأسّس به حزب البعث سنة ۱۹۵۲م ، وكانت سيطرته على العراق سنة ۱۹۶۸م. (صدقي وآخرون ، ۲۰۱۵م: ۴۴). ويقصد فرات من لفظة "القاعد" بصورة تهكمية هو القائد أي صدام حسين؛ ثمّ يرى البطل أنّ الخطابات التي يكرّرها المذيع ليست إلا احتفال عبث دائمي:

«هه! كيف نسيت أنّنا نعيش في احتفال عبث دائمي منذ عقود يشرف عليه حزب العبث[۱] نفسه! وأنّ كل شيء ممكن!» (أنطون ، ۲۰۱۳م: ۱۸).

۱. تعمّد الروائي أن يغير صورة الكلمات للسخرية والتهكم.

من هذا المقتبس يظهر لنا أنّ الاحتفالات والمسيرات لترسيخ الروح الحماسية ومصالحة الشعب مع الحزب فقد تكاثرت في المدارس، ومن كان ينظر للحزب البعثي قد ركزّ على المرحلة الإبتدائية وحثّ الطلاب الصغار للإنتماء الى الحزب.

انتخابات البعث

كانت فكرة البعث أبعد من الفكر الأيديولوجي و«من الخطأ التشديد الزائد على أيديولوجية البعث على أنّها السمة المميزة له، على الرغم من أن العراقيين انفصلوا عن البعثيين السوريين عام ١٩٦٦ لأساب أيديولوجية.لم تكن هناك سوى محاولات ضئيلة لبناء حركة جماهيرية، فقد ركزت عملية تجنيد أعضاء الحزب على النوعية وليس على الكمية حيث كانت علاقات الثقة الشخصية والقربى مسألة جوهرية» (سيسونز، والساعدي، ٢٠١٣م: ٧). كان أعضاء الحزب البعثي يحرصون على مشاركة الشعب في قراراتهم من خلال الانتخابات التي ينظمّها أعضاء البعث، وكان فرات يرى أنّ هذه الانتخابات لعبة بعثية؛ لأنّ كلّ الامور ترجع صلتها الى حزب البعث، وحتّى الانتخابات كانت مراسيم للبعث لا أكثر وكان الطلاب يعرفون هذه اللعبة ولكنهم يخرجون للفرار من الصفوف المُـملة:

«تسمح لنا بالخروج للمشاركة في هذا الهرس[١] الديموقراطي والإدلاء بأصواتنا.لم تكن هناك حملات انتخابية أو لقاءات مع المرشحين، مثلاً، لعرض رؤيتهم لدور الاتّحاد أو التجديد الذي يعدون الناخبين به! كان الأمر لا يتعدّي جلوس المرشحين جميعاً ببلاهة على طاولة في الساحة الكبيرة وأمام كلّ واحد ورقة كتب عليها اسمه. كلّهم بعصيون[٢]، طبعاً، وأعضاء في الاتّحاد الوطنيّ للطلبة» (أنطون، ٢٠١٣م: ٣٥).

إنّ المرشحين جميعهم أعضاء حزب البعث واختيار أحدهم هو يعني اختيار الحزب بأكمله وأنّ هذه الأمور هي لُعبة بعثية تشبه المهزلة، كان الراوي يحاول أن يصف للقارئ المراسم التي يقوم بها البعث ليست إلا تبليغاً ومحاولة لإرضاء الشعب بالسلطة المفروضة:

«لكنّ المهزلة كانت توفّر فرصة الخروج من المحاضرات المملة. أذكر يومها أنّنا قرّرنا ألا ننتخب الشخص نفسه. كنت قد انتخبت "ميكي ماوس" في السنة الماضية. هم لا يقرأون هذه القصاصات الورقية أساساً» (أنطون، ٢٠١٣م: ٣٥-٣٦).

---

١. العرس.

٢. بعثيون.

في العراق الذي يحكمه أعضاء حزب البعث بصورة همجية وقمعية لا وجود لإنتخاب المضاد أو الشخص المخالف مع قوانين الحزب، لهذا كانت الانتخابات إدامَةً لمراسيم الحزب، للتجمّع والإصغاء للخطابات والبيانات الحزبية. وهذه الأمور بظنّ المنظّرون للحزب أنّها تجعل للحزب قدسيّة وشرعية للسلطة والبقاء.

قدسية البعث

القدسيّة أو الخضوع لقوانين الحكومات هي من أخطر أنواع القمع في السلطة. «البعث هو فكر سياسي قومي عربي علماني كانت نشأته الأولى في سوريا في أربعينيات القرن الماضي في وقت كانت فيه سوريا لا تزال تحت حكم الانتداب الفرنسي. وتتّسم أيديولوجية الحزب، التي تؤمن بها العديد من الجماعات السياسية في العالم العربي، بالغموض وحدّة النزعة القومية، وهي أيديولوجية تؤكد على هدف القومية العربية المتمثّل بشعار "وحدة حرية اشتراكية"» (سيسونز و الساعدي، ٢٠١٣م: ٦). الحزب البعثي اجتهد كثيراً لكي يقنع الشعب العراقي بأن البعث هو الحزب الوحيد في العالم يستطيع إسعاد الشعب العراقي، وهذه الأمور قد شاهدناها في حوار ضابط الأمن وفرات. كان ضبّاط البعث يريدون من الشعب أن يقدّسوا الحزب، لأنهم يظنّون هناك قدسية في المعتقد البحثي تستحقّ التقدير:

«إنتَ طالب بس، بخلاف معظم دول العالم، متدفع تكاليف الدراسة أو الكتب. كل شيء متوفّر لك. وشلون ترد الجميل؟ بالاستهتار والتعدّي على المقدّسات» (أنطون، ٢٠١٣م: ٤٨).

لفظة المقدّسات والتي يعني بها الضابط اسم الحزب والقائد للحزب والمعتقدات للحزب، وهذا يعني كل شيء يختصّ بالحزب لا يستطيع أحدٌ نقده، هذا النوع من القمع الخطير كما أشرنا له سابقاً. كان يجب على الطُلّاب أن يدرسوا مادّة الثقافة ليتعلّموا أيديولوجية البعث وتنظيرات ميشيل عفلق وإلياس فرح وأن يتعرّفوا على مؤسسي الحزب:

«كانت مادة السخافة[1] هي المادة الوحيدة التي يجب على أيّ طالب أو طالبة جامعية أن يدرسها، سواء كان يتخصّص في الأدب الروسيّ أو الطب البيطريّ أو الهندسة المعمارية. كانت الشُعَب تُجمع في قاعة كبيرة لمحاضرة أسبوعية مدّتها ساعتان. في السنتين الأوّليتين درسنا أيديولوجية العبث وتنظيرات ميشيل عفلق وإلياس فرح» (أنطون، ٢٠١٣م: ٨٤).

من كان ينظّر للبعث لكي تدوم سلطته على العراق، كان قد عرف بأنّ المدارس السبيل

١. الثقافة.

الأسهل لوصول غاياته لهذا كانت وزارة التربية تعيّن مصادر وكتب تخدم أغراض البعث، وتعزّز ارتباط الطلاب بهذا الحزب، لخلق قدسيّة للحزب وأعضاءه والقدسية كانت تكثّر من مخاوف الشعب العراقي من انتقادات الحزب لهذا تسهل السيطرة عليهم.

الرقابة البعثية

الرقابة والتجسّس منهجان اتخذتهما السلطات البعثية لإرعاب الشعب العراقي. و«قد تعدّدت أجهزة الرقابة والتجسّس في العراق تحت مسميّات عديدة من أمن، ومخابرات، واستخبارات، ومنظمات حزبية، وجيش شعبي، وطلائع، وفتوة واتحادات الطلبة والعمّال وسائر الشرائح، وفدائيي صدام، وما إلى ذلك من أجهزة كانت تتبارى فيما بينها للإيقاع بأكبر عدد من المشتبه بهم، والفتك بأبناء الشعب، وإرعابهم» (صدقي وآخرون، ٢٠١٥: ٤٤). كان الشعب العراقي أثناء سلطة البعث في براثن فتّاكة لاترحم المتّهمين، وكانت رقابة عصية على الجميع، لهذا كان الكثير من العراقيين آنذاك يتحاشون البعث، وحتّى أنهم كانوا يحاولوا أن لا يفكروا بأمور تختصّ بحزب البعث:

«داهمني شعور غير منطقي بأنه يعرف أنّي أفكر بالنكتة وأسترجعها.لم أتعلّم الدرس بعد. كيف أوقف القفز التلقائي والطبيعيّ بين الكلمات والصور والمعاني؟ هه، ها أنذا أمارس الرقابة الذاتية على أفكاري وآليات عقلي» (أنطون، ٢٠١٣م: ٤٦).

لقد انتهج "صدام" في الحقبة التي فرض سلطته على الشعب العراقي سياسة رقابة صارمة وعنيفة، بحيث قال أحد الساسة العراقييّن في الثمانينات من القرن المنصرم: إنّ صدام بات يُحكم قبضته على العراق من خلال نظام تجسّسي متطوّر، يقوم خلاله ثلاثة ملايين مخبر بمراقبة أحد عشر مليون نسمة من الشعب العراقي. (رفيعي، ١٣٨٢ش: ٧٥-٩١) بأسباب تختصّ التعذيب يحاول الفرد العراقي أثناء سلطة البعث أن يتحاشي الطبقة الحاكمة، وكان الشعب يخاف فتك الأمن واستجوابهم بأشدّ الطرق. وكان هناك من يخدم الحزب ويساعدهم في الرقابة، وكان يكافئه الحزب بالكثير، سيّما استاذ خالد الذي حصل على شهادة الماجستير بتفانيه في خدمة الحزب:

«الأستاذ طارق المسرف[١] في غبائه قد حصل على شهادة الماجستير في علوم اللغة الإنكليزية وآدابها بتفانيه في خدمة الحزب في سنين الحرب، وبمراقبة زملائه وكتابة التقارير وليس بإتقان اللغة» (أنطون، ٢٠١٣م: ٥٦).

إذن كان من يخدم أهداف الحزب له مكافأة لكي ينعم بخيرات العراق ويشاركهم في السلطة على الشعب. وكان من ينتمي إلى الحزب الشيوعي هو الأكثر رقابة من قبل أعضاء الحزب، سيّما إلياس، ابن خالة والد فرات الذي كان شيوعياً حتّى بعد خروجه من السجن ظلّ تحت المراقبة:

«الشيوعيّ الوحيد في عائلتنا كان ابن خالة والدي، إلياس.... أمضى عدداً من السنين في السجن. وحتّى بعد خروجه ظلّ تحت المراقبة لسنة أو أكثر» (أنطون، ٢٠١٣م: ٨٩).

خروج الأشخاص من السجن ليس بمعنى انتهاء العقوبة بل بداية لمرحلة جديدة وهي مرحلة الرقابة وما أن يشك به الأعضاء مجدداً حتّى ينتهي به المطاف إلى الإعدام. وأصبحت أوضاع العراق أمنية وشديدة الخطورة، بالصورة التي لا يستطيع أحدٌ أن يثق بآخر، حتّى الزوج كان يخاف من زوجته. لهذا فرات بطل الرواية كان يخاف من حبيبته وكما هي كانت تخاف وتشك به ربّما ينتمي إلى البعث:

«وشلون أعرف إنتي مو وِحدة منهم؟ بس آني فضحت نفسي بعد كل اللي گِلتَه. — إي دير بالك. بس يمكن تريد تنصبلي فخ حَتّه أحچي» (أنطون، ٢٠١٣م: ١١٢).

كان فرات يحبّ أريج التي تعرّف عليها في الجامعة، وكان يقرأ لها نصوصه التي لم ينشرها، وعندما اعتقلوه وأخذوه إلى الدائرة للإستجواب لا يعرف من وشى به، فتذكر فلاح، صديقه الذي قرأ له نصوصاً شعرية وعلي، الذي كان يذهب معه إلى مباراة فريقي الزوراء والرشيد، وأريج حبيبته التي عاشرها و وثق بها وقرأ لها نصوصه، إذن لا يتهم أحد هذه الشخصيات بالوشاية لكي يبقى الغموض والمخاوف في فضاء الرواية حتّى النهاية. إذن الرقابة في عصر سلطة البعث كانت تمتدّ من الدوائر الحكومية، والجامعات، والملاعب حتّى الشوارع وجوف العوائل.

---

١. بالأصل: المشرف.

سلطة البعث على وسائل الإعلام

عُرفت وسائل الإعلام كالتلفزيون والمذياع والجرائد والكتب بالسلطة الرابعة ، لتأثيرها على الشعوب (نگارش ، ١٣٩٦ش: ١٢٣). حاول أعضاء حزب البعث السيطرة على هذه الوسائل بهدف السيطرة على الشعب.

كان البعثي يعرف تأثير وسائل الإعلام وكما تتمتّع بقوّةٍ هائلةٍ تؤثّر في قناعات الشعب ، وتعادل أو حتى تفوق قوّة الحكومة. والسلطات لاتسمح لأحدٍ نشر شيئاً خارج الإطار الحزبي ، لهذا فرات يصف الجرائد قائلاً:

«بحثت عمّا يستحقّ القراءة في جريدة الجمهورية. كانت هناك ترجمة جميلة لإحدى قصائد نيرودا في الصفحة الثقافية تحاصرها نصوص أخرى تعوي وتنهق للحزب والثورة» (أنطون ، ٢٠١٣م: ١١).

أصبحت سيطرة تامّة على وسائل الإعلام أثناء سيطرة البعث على العراق. وبما أنّ أهمّ منصّة لصوت الشعوب هي الجرائد ، فقد استولى الحزب البعثي على كل الجرايد ونشرها في العراق ، «بعد عام من تولية السلطة أصدر قانون المطبوعات وقيده في الصحافة عموماً والإسلامية خصوصاً بصورة حظرتها إلا الرسمية الموافقة لسياسته أو التي ليس لها تأثير إصلاحي أو خطاب جماهيري» (الزيدي ، ٢٠٠٨م: ٥١).

كانت النصوص المنشورة آنذاك تخرج من غرفة "دار الرقابة على النصوص" لكي لا ينشَر عملاً يعارض السلطة البعثية؛ وكانت الجرائد لا تنشر إلا لمصلحة الحزب والأخبار التي تعني بالحزب ، لهذا عندما أعطى "فرات" بطلُ الرواية نصاً لصديقه فلاح ، يظهر يأسه من نشر هذا العمل ، لأنهُ كان يعرف ما يريد المحرّرون للنشر:

«كانوا ينشرون لمن يكتب مثلهم أو يطبّل ويزمّر. لكنّه أصرّ ووافقت مع اقتناعي بالنتيجة. أعطيته نصاً حزيناً عن هلوسة أم تنتظر جثمان ابنها الوحيد الذي مات في الحرب. ورفض المحرّر الثقافيّ أن ينشره لأنّه لم يكن "تعبوياً" على حدّ قوله» (أنطون ، ٢٠١٣م: ٣٤).

كان أعضاء حزب البعث يعيّنون أفراد حزبهم للرقابة على المنشورات والمواد الأدبية لكي لا يخرج نصاً توعوي لينير أذهان الشعوب ، وكانوا يؤيّدون نصوصاً تعبوية تحفّز الشعب على حماية الحزب البعثي وإيقاظ الحس الحماسي في كيان الشعب. لهذا كانوا ضمن الجرائد يبيعون كُتيبات لخطابات صدام حسين ، ومن يريد أن يقرأ الجريدة عليه أن يشتري الكتيب أيضاً:

«ذهبت لأشتري الجرائد كعادتي وشاهدت عدداً جديداً من مجلة اليوم السابع ، فأخذت نسخة منها وحين أعطيت النقود لصاحب الكشك طلب المزيد. عندما استفسرت عن السبب قال لي إنّ هناك كتيباً يباع معها. ففتحتها ووجدت في وسطها كتيب "خطاب الرئيس القائد عن تحويل العمّال إلى موظفين". —بس ماريده. — اذا تريد اليوم السابع لازم تشتريه!.... هُمّ يفرضوها علينا وماكو مُرتجع» (أنطون ، ٢٠١٣م: ٩٩-١٠٠).

فقد لاسبيل لقارئ الجريدة إلا أن يشتري خطابات صدام حسين مرفقاً بالجرائد ، وهذا يدلّ على عدم أهلية حزب البعث في العراق وإجبار الشعب على الإظهار بالمودّة والمحبة من خلال شراء الخطابات ، وليس القارئ وحده يستنكر هذا العمل الشنيع ، بل حتّى بائع الجرائد يستنفر ويستنكر هذه الفعلة الشنيعة. وليست الجرائد وحدها في خدمة حزب البعث بل كانت الإذاعات التلفزيونية تحت سيطرتهم ، ولا تعلن عن خسائر الجيش العراقي في الجبهات الحربية أثناء الحرب:

«السيارات التي تحمل الشهداء الملفوفين بالأعلام قد بدأت تصل من الجبهة معلنةً حجم الخسائر التي لا تعلنها البيانات العسكرية. فقد جرت العادة بعد عدّة أشهر من الحرب ألّايتم ذكر خسائرنا!» (أنطون ، ٢٠١٣م: ٦٣).

من خصال حزب البعث هي أنّ لاينشر الأخبار الصحيحة خوفاً من غضب الشعب العراقي ، لهذا كان يروّج الأخبار الكاذبة والتي لا صحّة لها في جبهات الحرب.

كان صدام حسين يحاول طمس الكثير من الهويات لقوميات متعدّدة ويريد أن يمزجها بالثقافة البعثية ، لهذا كان يبحث عن فرصة لحذف اللغات الأجنبية من المواد الدراسية ومنع نشر الكتب بغير العربية بحجة الأمن؛ وقد مُنِعَت اللغات الأجنبية واللهجات المحلية ، بحجّة وجود عناصر تبحث عن الانفصال:

«مُنِعَت اللغات الأجنبية واللهجات المحلية التي تشجّع الانفصاليين والمندسين من أعداء الوطن (إلا لهجة الرئيس القاعد التي صادق عليها المجلس الوطنيّ لهجةً رسميةً لما حباها الله به من فصاحة وبهاء). كما أصدر الملحس[١] الوطنيّ الذي تمّ انتخاله[٢] ديموقراطياً قانوناً يقضي بإيقاع عقوبة الإعجام[٣] بكلّ من تسوّل له نفسه نشر الغموض والإبهام أو تعاطيهما» (أنطون ، ٢٠١٣م: ١٠١).

---

١. المجلس.

٢. انتخابه.

٣. الإعدام.

كان الغرض من هذا الأمر هو السيطرة على الأفكار وأن يمنع نشر كتب أجنبية تُنشر خارج العراق خوفاً من معرفة الطبقة المثقفة بأفكار نضالية وارتباطهم بكتّاب من خارج العراق ، وأن يقطع الصلة بين المثقف والكتُب الأجنبية لعدم معرفتهم بالقراءة. وقد استغلّ سنان أنطون المنفى لكي ينشغل «في تقليب محنة العراقي زمن الديكتاتور والحرب؛ إذ وفّرت فسحة الحرية في المنفى كتابة نصوص واضحة وصريحة عن عذاب العراقي وخوفه وهلعه ومقاومته ومعاناته وهو يواجه الموت يومياً؛ نصوص كان من المستحيل كتابتها في ظروف العراق حينذاك... كإعجام» (إبراهيم ، ٢٠١٢م: ٨-١٠).

كان حزب البعث على علمٍ بأنّ هنالك أفكار نضالية تبحث عن طرق الإطاحة به لهذا حاول طمس الهوية الكردية ، والآشورية ، وحذف اللغة الإنجليزية والفرنسية وانقطاع نشر الكتب الأجنبية وقمع المذاهب الأخرى للإبقاء لمدة أطول في الحكم والسلطة.

آلية تهديد والإرعاب والقمع

الدول التي خضعت لسلطة الطغاة والجبابرة شهدت أعظم الخطابات بلهجة التهديد ، وهذا التهديد لإرعاب الشعب وابتعادهم من الساحة السياسية وردعهم متى ما شاء بها أعضاء التنظيم. إذن التهديد إحدى آلات الحزب البعثي الفتّاكة التي حضرت في رواية إعجام. في زمن البعث شاعت وانتشرت حتى أصبحت أكثر الجرائم تداولاً في معاملة أعضاء الحزب؛ التهديد بالقتل. عندما كان الجندي يقرأ الأسماء للفحص تصاعدت بلبلة فتوقّف عن قراءة الأسماء ، ونظر إلى الحُضّار لعدّة ثوانٍ وقال مهدداً:

«ما أريد أسمع سوالف ولغاوي. افتهمتوا؟ راح أقرأ الأسامي واللي يفتح ثِمّوا والله العظيم هسّاع آخذ الدفتر مالتو وأطمَغو "سالم مُسلّح" ويروح لمكتب التجنيد ويسوقو للجبهة يحارب» (أنطون ، ٢٠١٣م: ٢٨).

كانت الجبهات آنذاك تشهد حرباً شرسة وتكاثرت الضحايا وتقطّعت الأبرياء ، لهذا ببرودة دمٍ يهدّدهم الجندي بإرسالهم إلى الجبهة رغم أنّ الكثير منهم لديه نقص في جسمه. ولم ينتهِ التهديد في الدوائر الحكومية والثكنات النظامية والسجون ، بل يمتدّ هذا التهديد حتّى لطلاب المدارس:

«حذّرونا من أنّ الذي يهرب من المسيرة سيفصل من المدرسة ويتعرّض لأقسى العقوبات» (أنطون ، ٢٠١٣م: ٣٨).

كان يجب على الطُلّاب أن يحضروا مراسيم تختصّ بالحزب ومن يغيب عن هذه المراسيم مصيره التوبيخ ، لأن يحاول أعضاء الحزب أن يعزّزوا انتماء الطلاب للحزب ، وإن لم يوافق أحدهم يتمسّكون بآلة التهديد:

«بقيت مستقلاً ورفضت أن أنتمي في الجامعة ، بالرغم من أنّي هُدّدتُ بأنّهم لن يوافقوا على دخولي برنامج الماجستير إذا لم أنتَمِ» (أنطون ، ٢٠١٣م: ٦٣).

ربّما إحدى أسباب تلفيق تُهمة لفرات وأخذه للاستجواب هو رفضه للإنتماء للحزب البعثي ، لأنّ من كان لاينتمي إلى الحزب مهدداً بالعقوبة ، وقد راح ضحيته فرات أثناء الاستجواب. «كان الانضمام إلى الحزب أساسياً ، ليس فقط لتولي مناصب سياسية عليا ولكان أيضاً من أجل الحصول على تعليم جيّد وللاشتغال بمعظم المهن» (فيبي مار ، ٢٠٠٦م: ٣). التهديد والاستجواب جعلت من الشعب العراقي أناساً تتمسّك بالخوف ليتفادوا مخاطر الحزب ، وقد كانت آليات الحزب فتّاكة ولاترحم من يتطاول على الحزب.

وفي الجامعة ليس الطُلاب وحدهم يخافون من التقارير والإهانات البعثية واستجواباتهم ، بل حتّى الأساتذة في الجامعات يخافون التنظيم الفتّاك. لهذا عندما جلست طالبة في الصفّ الأوّل وبيدها وردة حمراء طردها الأستاذ بعصبية: «هاي شنو؟ گومي طلعي برّا» (أنطون ، ٢٠١٣م: ٨٥).كان تاريخ ذلك اليوم هو ٣١ آذار وهو يوم تأسيس الحزب الشيوعي لهذا فرات بطل الرواية يقول:

«هو أكيد خاف إنّه إذا ميگللها تشيل الوردة يكتبون عليه تقرير» (أنطون ، ٢٠١٣م: ٨٦).

من خلال هذا النص يظهر للقارئ بأنّ هناك رقابة مشدّدة على الأساتذة في الجامعات وهم أيضاً يخافون الاستجوابات والبطش البعثي. إذن الفضاء الذي تجسّده رواية إعجام هو فضاء مليء بالمخاوف ، والتهديدات والاستجوابات ، ولا أحد يستطيع أن يعترض على كل هذا الظلم.

العنف السلطوي البعثي (التعذيب)

يحرص الروائي على سرد لحظات التعذيب بدقّة لكي يعبّر عن جرائم البعث آنذاك ، كباقي الروائيين الذين سبقوه. فقد اتصف العنف السلطوي العراقي في هذه الرواية «بـ"السرد التفصيلي" الدقيق ، يستدعي الراوي من خلاله لأحداث ، ووقائع عايشها الكثير من أبناء العراق أولاً ، ويخاطب بها الأجيال التي جاءت لاحقاً بعد تلك الأحداث ثانياً ، يسرد عليها

ماضيها الذي لم تعشه ، مطالباً إياها بحفظ ذلك التاريخ من الضياع والشتات» (الساعدي ، ٢٠١٣م: ٥٧). كانت سجون البعث ترى تعذيبات حادّة ومُهينة بالنسبة للمتهم:

«يأخذون بتعذيب الشعب وامتطائه كدابة لأطول فترة ممكنة لأنّهم يكتشفون أنّ ذلك أسهل بكثير ، وربّما ألذ ، من تحقيق وعودهم وشعاراتهم» (أنطون ، ٢٠١٣م: ٢٣).

إنّ كثيراً من الأعضاء المنتمين لحزب البعث كانوا يعانون من عُقَد نفسية؛ لهذا عندما يأتي أحدهم بمتهمٍ ،كان لايرحمه ، ويحاول قمعه وإسكاته بشتّى الأساليب التعسفية. كانت تعذيبات حزب البعث للمعتقلين تتعدّ مرحلة الإنسانية ، فقد كان المعتقل فريسة للضابط السادي:

«يزداد الألم في معصميّ ومفاصلي كلّما حاولت الفكاك من الحبال السلكية التي تحزّ جلدي» (أنطون ، ٢٠١٣م: ٣٦). وليس العنف وحده بل كان التهديد الجنسي وممارسته من أشدّ التعذيبات التي قد شهدها المسجون ، وكما حال فرات بطل الرواية حين هدّدهُ الشرطي السمين بالإعتداء الجنسي:

«أسمع صوت السّحّاب عندما يغلق فتحة البنطلون وبعد ذلك الحزام. ثمّ صفعة الشكر والمداعبة على إليتي بعد الانتهاء وكلمة "تسلم" التي تنهي طقسه السادي» (أنطون ، ٢٠١٣م: ٧٥).

عادة في الدول التي يتحكمها الطغاة ، يغيب فيها الإشراف على السجون ويُصبح تلفيق التُهَم أسهل بكثير من باقي الدول ، لهذا نرى "فرات" بطل الرواية بسبب تلفيق تُهمة تختصّ بنصٍ يسخر به من النظام يعاقب بهذه الوحشية ولكثرة الاهانات والتعذيبات التي شهدها ، تعجّب من رقّة أحد الضُبّاط ، وعندما سألهُ «شتحب تِشرَب؟» قال: «صدمتني هذه الرقة والإنسانية في المعاملة ولم أدرِ ماذا أقول. هل قرّروا أن يلتزموا بالاتفاقيات الدولية لاحترام حقوق السجناء أو الحيوانات؟» (أنطون ، ٢٠١٣م: ٤٤). وليس التعذيب في السجون وهتك الأعراض وحدها يشهده العراقي آنذاك ، بل من يريد الانشقاق أو الهروب من الحزب كان عقابه الإعدام:

«كان عدد الفارّين من الجيش قد ازداد وتوزّعت المفارز ونقاط التفتيش التي تبحث عنهم. وصدرت أوامر تسمح للناس بإطلاق النار عليهم إذا ما حاولو الهرب. كما أصبحت الإعدامات العلنية ، ليكون هؤلاء "عبرة لمن اعتبر" ، مسألة عادية تجري بين الحين والآخر ويدعي الناس في المحلّة إليها» (أنطون ، ٢٠١٣م: ٥١).

كانت أوضاع العراق في تلك الحقبة محزنة للغاية ، فقد تزايد الفقر ، والبطالة ، وعدم توفير الأدوية والأغذية سبّبت الهروب من الوطن ، وليس الشعب وحده من يفرّ ، بل حتّى من كان ينتمي للحزب البعثي كان يهرب من العراق ، لهذا طلب صدام حسين بإتّخاذ إجراءات صارمة لمن يفكر بالهروب وإعدام من يفكر أو يقع بين براثن الأمن حين الفرار. وتكاثرت الإعدامات واعمال العنف الذي شجّع به البعث حتّى ليتشجّع الوالد قتل ابنه:

«كان القاعد[1] يقلّد نوط الشجاعة لرجل قتل ابنه لأنّه رفض الالتحاق بوحدته العسكرية» (أنطون ، ٢٠١٣م: ٥٣). كان تحفيز صدام حسين على قتل الخائن أدّى إلى مجزرة انسانية حيث أصبح القتل بحجة الخيانة أسهل مما سبق ، كما هذا الوالد في المقتبس قتل ابنه بحجة الخيانة والذي انكشف أمره فيما بعد لأسباب عائلية كما يشرح فرات: «حين طلب منه أن يروي تفاصيل الحادث البطوليّ ، تبين وكأنه قتله بعد مشاجرة لا علاقة لها بالوطنية ، بل بخلافات عائلية» (أنطون ، ٢٠١٣م: ٥٣).ومن هذا المنطلق تكاثر العنف السلطوي البعثي على الشعب العراقي وتشجّع القاتل على قتل الأبرياء.

الأمن في الجامعة و استجواب الطلاب

في مثل العراق الذي كان تحت سلطة البعث ، تتحوّل البلاد إلى معسكر أمني حيث تتكاثر نقاط التفتيش والجنود المسلحة الغاضبة ، حتّى تمتدّ هذه الاستجوابات إلى الجامعات والملاعب التي تتحوّل إلى معسكرات نظامية.كانت إحدى أهميات حزب البعث السيطرة على الجيل الطلابي في العراق ، لهذا استقرَّ الضبّاط في الجامعات للسيطرة على الأمور:

«صوت أبي عمر ، ضابط الأمن في قسم اللغة الإنكليزية الذي كنت أحد طلابه. وكان برفقته واحد آخر من فصيلته قصير القامة..كان يرتدي بدلة سفاري زرقاء من التي كان يهوى موظفو الأمن والمخابرات ارتداءها بغضّ النظر عن المناسبة أو الموسم» (أنطون ، ٢٠١٣م: ١٢).

كان حضور أبي عمر في الجامعة أدّى إلى اعتقال فرات بطل الرواية ، لأنّ إحدى وظائف أبي عمر هي التعرّف على الأشخاص المخالفين للحزب. كان حضور الأمن في الجامعة قد أرعب الكثير من الطلاب والعوائل ، حتّى نرى جدّة فرات تحذّره من حضور الأمن في الجامعة: «لَتحكي بَرّا يا إبني. إذا رحت شَسوّي أنا؟ غير دموت من القهر. لتطوّل لسينك بعدين يقُصّونو. هَذولي مَيخافون من اللّه» (أنطون ، ٢٠١٣م: ١٥). ترى جدّة فرات في حضور

١. القائد: هكذا كتِبَ بالنص الأصلي للرواية.

الأمن شيئاً من الرعب والقمع ، لأنّها ترى هؤلاء لا يرحمون ولا يطيقون مخالفينهم. ولم يكن الأمن في الجامعه وحدها بل حتّى في المدارس وحتّى الحضانة «متتذكر هذا الجيهِل اللي حَكي نُكتة بالحضانة كان كن سمعها بالبيت والمُدرّسة راحت وقَلّتلِم وحبسو أهلو؟» (أنطون ، ٢٠١٣م: ٢٢). كانت إحدى أساليب البعث هي أن تستجوب الأطفال في المدارس لتتعرّف على أفكار عوائلهم ، وإذا شك ضابطٌ بأحدٍ ، يأخذ أطفاله للاستجواب. لهذا كان ابوعمر ضابطاً ،وهو الذي ترصّد إلى فرات وإلى أشعاره والنُكت التي يرويها إلى الأصدقاء ، وقد تمّ اعتقاله للاستجواب في بداية الرواية:

«الرفيق صلاح يريد يسألك چَم سؤال. ارتبكت قليلاً وأجبت من دون وعي: طبعاً. سألني صلاح وهو يرسم ابتسامة خبيثة: مُمكن تتفضّل ويانا؟ وين؟ عالدائرة» (أنطون ، ٢٠١٣م: ١٣).

كان هذا الاستجواب أدّى إلى إذلال فرات ، وسجنه ، وتلفيق تُهَم كثيرة ، هذا ممّا يجعل العوائل تخاف على أبنائهم في الجامعات من الاستجواب. لا أحد ينجو من استجواب ضُبّاط الأمن ، لأنهم كانوا يستجوبون الطلاب بانتظام ولا أحد يستطيع أن يفرّ منها: «كانت هذه هي اللحظة التي فكرت كثيراً باحتمال وقوعها ، لكن من دون قدر كاف من الحذر لتفاديها» (أنطون ، ٢٠١٣م: ١٣).

كانت سيطرة البعث والقوة القمعية التي يمتلكها قد أرعبت الكثير من أبناء العراق ، وحين يتمّ اعتقال شخصٍ من قبل قادة البعث ، يحسّ بالذعر الحقيقي ويفكر بالموت أو السجن المؤبّد ، ولا قانون للنظام البعثي وكل ما هو يدير العراق المزاج لأفراد الحزب والعلاقات الشخصية.

النتيجة

لقد احتلّ الآخر البعثي مكاناً بارزاً في روايات سنان أنطون وخلق فضاءات قريبة من أفعال أعضاء الحزب البعثي.إنَّ الفضاء الذي تجسّدته رواية إعجام هو فضاء مليء بالذعر والمخاوف ، والتهديدات والاستجوابات والإهانات ، ولا أحد يستطيع أن يعترض على هذا الظلم.

– وحاول سنان أنطون أن يعرّف الآخر البعثي وفق المعايير التي شهدها في العراق أثناء سلطة حزب البعث والذي نشر سيطرته على الإعلام والسلطة الرابعة كالتلفزيون والجرائد والكتب.

-كان أعضاء الحزب البعثي يبحثون عن تعزيز انتماء الشعب للحزب من خلال المراسيم ، والتجمعات ، والانتخابات حيث يلقي كل من عليه خطابات وهتافات مؤيده للحزب.

-كان الحزب البعثي يحرص على أمن العراق وفق المعايير التي يعيّنها ، لهذا يرسل قوات الأمن إلى الجامعات ، وإلى الملاعب والمنتزهات ، لكي يسيطروا على الأوضاع.

-كان من أهم صفات الآخر البعثي في رواية إعجام هو العنف السلطوي والتعذيب الذي يفوق خيال المتهم والقارئ ، حيث يعذّب أعضاءُ الحزب المتهمين من الناحية الجنسية وتحقيرهم وإذلالهم.

-كانت الرقابة البعثية من الأعمال المهمة التي كان يرويها فرات بطل الرواية من بداية الرواية حتّى نهايتها ، فقد كانت الرقابة مشدّدة وكان أعضاء حزب البعث يحضرون جميع التجمّعات والندوات والجامعات ، ومن يخرج من السجن لا يتركونه بل يجعلون أحدهم يتابع خطواته لسنوات ، حيث كان الآخر البعثي المذهبي هو الأكثر تطرفاً في الرواية.

-كانت آليات حزب البعث للسيطرة على الشعب العراقي هي استخدام لغة التهديد ، وجلب المخاوف وشنّ الحروب لكي يظهروا له أنّ العراق من دونهم غير آمن ، حتّى يعطوا طابعاً قدسياً لحضورهم في العراق.

-جدلية الصّورولوجيا أو الصّراع بين "الأنا والآخر" في رواية إعجام تبتني على صراع حزب البعث مع الكيان العراقي ، حيث نشبت نيران التفرقة والتبعيض التي أدّت إلى حضور أمريكي في الشّرق الأوسط ، وذلك بعد غزو العراق للكويت عام ١٩٩١.

-كان الآخر البعثي هو الأكثر فتكاً بأبناء الشعب العراقي ، حيث شتّتهم وجعلهم يهربون من أوطانهم.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

إبراهيم ، سلام ، (٢٠١٢م). *رصد الخراب العراقيّ في أزمان الدكتاتورية والحروب والاحتلال وسلطة الطوائف* ، بغداد: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

ابن منظور ، (١٩٨٨م). *لسان العرب* ، د ط ، بيروت: دار الجيل.

أفاية ، محمد نور الدين ، (١٩٩١م). *الغرب في المتخيل العربي* ، ط ١ ، الشارقة: منشورات دائرة الثقافة والإعلام ، ١٩٩١م.

أنطون ، سنان ، (٢٠١٣م). *إعجام* ، ط ١ ، بيروت: دار الجمل.

بسيوني ، همت ، (٢٠٠١م). *الشخصية المصرية وصورة الآخر* ، ط١ ، القاهرة: مصر العربية للنشر والتوزيع.

حاج علي ، مازية ، (٢٠١٧م). *الهوية وسرد الآخر في روايات غسان كنفاني* ، رسالة لنيل درجة الماجستير ، جامعة محمد خضير بسكرة ، الجزائر.

حمود ، ماجدة. (٢٠١٠م). *صورة الآخر في التراث العربي*. ط١ ، بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون.

الخباز ، محمد. (٢٠٠٩م). *صورة الآخر في شعر المتنبي*. ط١ ، بيروت: مؤسسة العربية للدراسات والنشر.

رفيعي ، عبدالله ، (١٣٨٩ش). *صدام ابن غريقه عرب (بچه ولگرد شنزار)* ، ط١ ، تهران: انتشارات امير محمد.

الزيدي ، طه أحمد ، (٢٠٠٨م). *الصحافة الإسلامية في العراق ١٨٦٩ - ٢٠٠٧م* ، ط١ ، بغداد: دار الفجر للطباعة والنشر.

الساعدي ، عبد جاسم ، (٢٠١٣م). *العنف السياسي في السرد القصصي العراقي* ، ط١ ، عمّان: دار فضاءات.

سيسونز ، ميراندا ، و عبدالرزاق الساعدي ، (٢٠١٣م). *إرثٌ مُرٌّ دروس من عملية اجتثاث البعث في العراق ٢٠٠٣ - ٢٠١٢م* ، بغداد: المركز الدولي للعدالة الإنتقالية.

شكري ، مسعود ، و كبرى روشنفكر ، و خليل پرويني ، وفرامرز ميرزايى ، (٢٠١٧م). «صورة الآخر الإسرائيلي في رواية "المتشائل" لإميل حبيبي ، *مجلة إضاءات نقدية السنة السابعة* ، العدد ٢٦ ، صص٨٥- ١٠٩.

الشوابكة ، سمية سليمان ، (٢٠١٩م). «الموت ثيمة فجائعية في الرواية العراقية الجديدة "وحدها شجرة الرمان لسنان أنطون أنموذجاً» ، *مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية* ، المجلد ٤٦ ، العدد٢ ، صص ٨٣-٩٨.

صدقي ، حامد ، وسيد عدنان اشكوري ، وصغرى فلاحتي ، وصبري جليليان ، (٢٠١٥م). «دراسة صدى المقاومة في شعر عدنان الصائغ» *مجلة إضاءات نقدية* ، السنة الخامسة ، العدد التاسع عشر ، صص٤٢-٦١.

عيسي ، فوزي ، (٢٠١١م). *صورة الآخر في الشعر العربي* ، ط١ ، التدقيق اللغوي والمراجعة عبدالعزيز جمعة ، الكويت: مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري.

فيبي مار ، (٢٠٠٦م). *من هُم قادة العراق الجدد؟ ماذا يريدون؟* ، بغداد: معهد السلام الأمريكي.

القوصي ، عبدالعزيز ، (٢٠١١م). *أسس الصحّة النفسية* ، ط١ ، بيروت: دار القلم.

كاگلن، كان ، (١٣٨٣ش). *صدام (زندگی مخفی)* ، ط١ ، ترجمه: نادر افشار و فروغ چاشنی دل ، تهران: مؤسسة انتشارات عطايي.

لعيبي ، محمد قاسم ، (٢٠١١). *صورة الآخر في الرواية العراقية المعاصرة* ، أطروحة لنيل درجة الدكتوراه ، جامعة المستنصرية.

نانكت ، لاتيشيا. (١٣٩٠ش). *الصورولوجيا كقراءة لنصوص إيران وفرنسا المعاصرة*. ترجمة مژده حقيقي. مجلة الأدب المقارن. الدورة الثانية ، الرقم الأول. صص ١١٥-١٠٠.

نگارش ، جاسم ، (١٣٩٦ش). *«الدراسة لجوانب تجليات الحرب الناعمة في أهم روايات الجزائر:«اللاز» ، «ذاكرة الجسد» ، «ريح الجنوب» ، «الف وعام من الحنين» أنموذجاً»* ، رسالة لنيل درجة الماجستير ، جامعة لورستان.

الهروط ، بلال سالم ، (٢٠٠٨م). *صورة الآخر في أدب الرحلات الأندلسية* ، أطروحة للدكتوراه ، أردن: جامعة مؤتة.

Sources

The Holy Quran

Afayeh, Mohammad Nooruddin, The West in the Arab Mind, Sharqah: Publications of the Department of Culture and Media, (1991).

Al-Harout, Bilal Salem, Another Picture in Andalusian Travelogue Literature, PhD Thesis, Jordan: Motta University, (2008).

Alkhbaz, Mohammed. Another image in Al-Mutanabi poetry, first edition. Beirut: Arab Foundation for Education and Publishing، (2009).

Al-Qousi, Abdul Aziz, Mental health, Beirut: Dar al-Qalam. (2011).

Al-Saedi, Abdul Jassim, Political Violence in Iraqi Stories, Vol. 1, Amman: Dar Fazaat. (2013).

Al-Shawabakah, Somayeh Suleiman, "Death and its catastrophe in the Iraqi novel, the novel of their unity, the tree of the novel by Sunan Anton Nomoneh, Journal of Humanities and Social Sciences, Volume 46, Number 2, pp. 83-98 .2020.

Al-Zaidi, Taha Ahmad, Islamic newspaper in Iraq 1869-2007, 1st, Baghdad: Dar Al-Fajr for printing and publishing, (2008).

Antoon, Sinan, I'jaam, Beirut: Dar Al-Jamal (2013). (in Arabic)

Besioni, Hemmat, Egyptian character and another image, 1st floor, Cairo: Egyptian Egypt for publishing and distribution. (2001).

Brahim, Salam, Research on the Destruction of Iraq in the Times of Dictatorship, Wars, Colonialism, and Religious War, Baghdad: Arabic Center for Research and Political Studies, (2012).

Haj Ali, Maziehself and other in the novels of Ghassan Kanfani, master's thesis, Mohammad Khedir Baskra Society, Algeria, (2017).

Hammoud, Majdh. Another image in Arabic culture. 1st, Beirut: Dar Deutsch Lllvm Nashrvn. (2010).

Ibn Manzoor, Arabic Language, vol.1, (1988).

Jesus, Fawzi. Another image in Arabic poetry, edited by Abdul Aziz Friday, Kuwait: Abdul Aziz Saud Al-Battain Award Foundation. (2011).

Kaglen, Kahn, Saddam (Secret Life), vol.1, translated by Nader Afshar and Forough Chashni Del, Tehran: Atai Publishing Institute. (2004).

Laibi, Mohammad QasimAnother in the Iraqi novel, PhD thesis, Al-Mustansiriyah University, (2011).

Nanekt, Latvia. Illustration in French and Iranian stories. Translation of the true good news. Journal of Comparative Literature. The second period, the first number. Pp. 100-115 (1390).

Negarash, Jassem "Research on soft warfare in Algerian novels, the study of youth:" Al-Laz "," Zakra al-Jasd "," Rih al-Janub "," Al-Wa'am min al-Hanin "in this place", Master's thesis, Lorestan University, (2017).

Phoebe Marr, "Who are the new rulers of Iraq?" And what do they want?" Baghdad: American Peace Treaty, (2006).

Rafiei, Abdullah, The Drowned Arab Saddam, Vol. (2010).

Shokri, Massoud, and Kobra Roshanfekr, and Khalil Parvini, and Faramarz Mirzaei, "Another Israeli in the novel Al-Mut'ashil by Imil Habibi", Cash Cash Magazine, Seventh Year, No. 26, pp. 109-85.2017.

Siddiqui, Hamed, Waseed Adnan Eshkevari, Wasghari Falahati, and Sabri Jalilian"Resistance in the poetry of Adnan Al-Sayegh" Magazine of Cash Reduction, Al-Sunnah Al-Khamisah, Number Twelve, pp. 42-61. (2015).

Sison, Miranda, and Abdul Razzaq Al-Saadi, Bitter Heritage, Research on the Ba'athist Party in Iraq, 2004-2012, Baghdad: International Center for the Fair Transfer of Power, (2013).